التكامل المعرفي
في المنظومة التعليمية الجامعية
(مقاربة تأصيلية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها)

إعداد الدكتورة: عقيلة حسين كلية العلوم الإسلامية –جامعة الجزائر-1-

المقدمة

يعتبر العلم والمعرفة من قضايا الدين الإسلامي الكبرى: حكما وتنزيلا، نصوصا وشروحا، تصورات وضوابط ونظريات. فالعلم في عرف المسلمين وأدبياتهم هو أحسن ما على الأرض بعد الإيمان والتوحيد، ولذلك خدموه بمهجهم وأموالهم، وأعطوه كل أعمارهم؛ رحلة، وصبرا، وملازمة، وتأليفا، ونشرا، وتدريسا وأوقافا. ولم يكن لهم كل هذا سوى مرضاه الله- سبحانه تعالى-وبناء الحضارة، وتعمير الأرض بالخير.

ومن أهم آليات التحصين وبناء الذات الحضارية هو المنظومة التعليمية، التي أولاها المسلمون عبر تاريخهم الطويل حكاما ومحكومين،علماء وعامة كل العناية، من حيث التنظير وتصميم البرامج والمقاربات، والمقررات ومراعاة المستويات التعليمية والأولويات، والتدرج، وأنواع العلوم التي تلقن في مراحل عدة إلى الإجازات، ونيل مرتبة العالم: الحافظ، والفقيه، والمحدث والطبيب، والفيلسوف، وغيرها من الألقاب العلمية التي عرفها المسلمون.

لم يراع الإسلام في طلب العلم لا الصغر ولا الكبر ولا الرجل ولا المرأة بل عمم الخطاب للجميع.لأن العلم مناط التكليف، وسبب الشرف والرفعة، ومقياس التحضر والتقدم، وسبب الفوز في الدنيا والآخرة.

إشكالية البحث

إذا كانت برامج ومناهج التعليم الابتدائي والثانوي في العالم الإسلامي؛ تحقق بعض التكامل في موادها بما في ذلك مواد الشريعة الإسلامية، فإن التعليم الجامعي خضع للبنية الفكرية الغربية في المناهج والأولويات والتخصصات. وغيب أهم مصدر من مصادر المعرفة عند المسلمين وهو الوحي: القرآن والسنة.

فهل التكامل المعرفي هو الوصل بين العلوم والتنسيق بينها من حيث المناهج والبرامج، أم الفصل بينها مراعاة للتخصصات؟ هل التكامل المعرفي هو اعتماد الوحي إضافة إلى العقل والحدس والتجربة كمصادر وآليات المعرفة؟ هل التكامل هو أخلقة المعرفة والعلوم والمناهج وإخضاعها لقيم الأمة ومقاصد الشريعة.؟

الإطار النظري للبحث

يتناول البحث معالجة إشكالية جوهرية في مسائل التكامل المعرفي بين العلوم ودورها في التحصيل العلمي والتحصين الحضاري، بالنسبة للطالب الجامعي، من أجل بناء مناهج وتصورات تنتج طالب علم يتحقق فيه التكامل بين القيم والعلم، والدين والمعرفة، الأخلاق والشهادة. وهذا هو الإطار التصوري الذي دلت عليه نصوص الشريعة من القرآن والسنة، ومقاصدها، وأقوال العلماء.

وإذا كان التكامل بين المعارف يعني الجمع بين العلوم المختلفة، فحري بنا في هذا المقام الحديث عن إشكال خطير أوجده البعض في علوم الشريعة؛ وهو انعدام التكامل المعرفي بين أهل الفقه وأهل الحديث، وبين أهل الشريعة وأهل الحقيقة- التصوف-، وبين الشريعة والحكمة. فقد أحدث بعض المسلمين فصلا لا وصلا بين الفقه، والحديث، والأصول، والعقيدة، والتصوف، والفقه، والشريعة والفلسفة

ناهيك عن العلوم الأخرى. لأنهم تركوا الآليات التي تأصل لذلك وهي نصوص القرآن والسنة ومقاصد الشريعة.

فوقع شرخ وفصل معرفي خطير في التاريخ الإسلامي؛أدى إلى غلق باب الاجتهاد، والغلو في التعصب والتقليد، وتفويت فرصة النهوض واللحاق بركب حضارة.

قد يعتبر البعض أن مبدأ التكامل المعرفي؛ قد يتنافى مع التخصص الدقيق للطالب والباحث، أو علم الخلاف الذي ينتج تنوعا وثراء معرفيا لا خصومة وعداوة وإرهابا.

إن التأصيل الشرعي لهذه القضايا والإشكاليات في ضوء نصوص القرآن الكريم، والسنة الصحيحة، ومقاصد الشريعة هو الموصل إلى تحديد العناصر الأساسية للنهوض الحضاري، وأهم هذه العناصر اقتران المعارف بالقيم، والعلم بحسن الخلق، والتدين بالتحضر، والعمل بالإخلاص.

المبحث الأول: أسس التكامل المعرفي في الحضارة الإسلامية

تعيش الجامعة العربية عموما، والطالب الجامعي خصوصا في الجزائر أو في غيرها من الدول، أزمة وشرخا كبيرا بين الهوية وشخصيته وانتماءه، وبين تحصيله الجامعي وتكوينه العلمي والتصوري والمنهجي.

فالطالب الجامعي يواجه في جميع تخصصاته الجامعية نظريات مستوردة، وأفكار تهدد هويته الحضارية، وشخصيته القاعدية الفطرية، فهو بين نظريات فرويد في علم النفس ونظريات ماركس وإنجلز وغيرهما في الاقتصاد، وبين الفلسفات الغربية والمدارس الغربية في الفلسفة وبين الحتمية التاريخية في التاريخ وبين الأفكار والحلول ولا أقول المناهج المستوردة من هنا وهناك.

وطالب الدراسات اللغات الأجنبية ممزق بين هويته والحضارة التي يدرسها عبر الأدب الفرنسي أو الانجليزي أو غيره، وطالب الطب والهندسة لا يتلقى لا مناهج ولا علوما لسلفه، فهو يعرف الغرب، ولا يعرف شيئا عن تاريخ الطب في بلده أو حضارته.

وطالب علوم الشريعة إما يتلقى قناعات شخصية لا دروس علمية، وإما معلومات تراكمية من غير استخدام لآليات التفكير والمنهج، وإما فقه من غير حديث، أو حديث من غير أصول أو تصوف من غير ضوابط العقائد...

فينبغي إعادة الاعتبار لتكاملية المعرفية داخل المنظومة التعليمية والتعليمية، باعتبارها السبيل الأقرب لتأسيس رؤية جديدة لواقع التعليم ومنتظراته كأكبر رهانات التنمية البشرية وأكثرها حسماً في تحديد حاضر الأمم ومستقبلها.

وأساس بناء الحضارة الإسلامية، هو الدين والعلم، والدين الإسلامي مصادره محددة بالكتاب والسنّة الذين هما المصدران النقليان. والعلم آلته العقل، فالتكامل بين الدين كنص والعقل كمستنبط للعلم من النص أدى إلى نشوء علوم شرعية كثيرة، فعلت حركة الحضارة، وبناء الأمة الإسلامية التي وصفها القرآن العظيم﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[1]

المطلب الأول: الحضارة الإسلامية دين وعلم

أساس بناء الحضارة الإسلامية: الدين والعلم، والدين الإسلامي حث على العلم في أول الآيات نزولا على سيد الخلق-ﷺ-، والعلم هو أساس التكليف والاجتهاد وصحة الأعمال والأقوال. فالعلم لا يلغي الدين والدين لا يلغي العلم، وتقام

(1) سورة آل عمران –الآية 110.

الدنـــيا والآخرة بالدين والعلم. جاء في كلام أهل العلم: (الْجَهْلُ سَبَبٌ عَظِيمٌ فِي الْعَالَمِ لِمَفَاسِدَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَفَوَاتِ الْمَصَالِحِ وَالْعِلْـــمُ سَـــبَبٌ عَظِـــيمٌ لِتَحْصِيلِ مَصَالِحَ وَدَرْءِ مَفَاسِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)"[1]

وفي زمن الضعف قلّد بعض العرب والمسلمين الغرب؛الذين جعلوا بين الـــدين والعلم شرخا كبيرا، ولا حجة لهم في ذلك سوى أن الغرب تقدموا ونحن تأخرنـــا، فلْنحتذ حذوهم حتى نتقدم؛ (...فقد ادعت فرقة أولى منهم أن بين العلم والـــدين تناقضًا صريحا ...وبالغت في التمسك بهذا التناقض، ولم تَرَ مخرجا منه لا بتـــرجيح ولا بتفريق، بل جعلت العلم حربا على الدين وجعلت الدين حربا علـــى العلـــم، ورأت أنه لا مخرج من هذه الحرب إلا بانتصار العلم وانهزام الدين؛ فانتصر العلـــم لديها وانهزم الدين. وما درت هذه الطائفة منا أن أسباب النزاع بين العلم والـــدين عند غيرنا لا وجود لها البتة عندنا مهما تكلفت من أسبابالمشابهة بيننـــا وبينـــهم، ومهما لفَّقت من تُهم لتاريخنا حتى يكون بسوء تاريخ غيرنا، طامعـــة في أن يُقبـــل موقفها كما قُبِل موقف غيرها، وهيهات أن يُقبل! فالفجوة بيننا وبين سوانا في هذا الأمر لا هي حفرة تُردم ولا هي هوة تُعبر).[2]

فالتوحيد في الرؤية الإسلامية ينبثق عنه مفهوم الاستخلاف والرؤية الإســـلامية تربط بين التوحيد والوجود، وبين العقل والنقل، وبين الإنسان والكون في علاقـــة مركبة لا تناقض فيها ولا تعارض مع خالفه بل تتكامل المفاهيم وتتضافر من أجـــل "تحرير" الإنسان من عبودية الطبيعة أو ألوهية الهوى والمنفعة المادية الضيقة، ويجعل العلاقات بين البشر أصلها التعارف، والتدافع الخلاق.

(1) أنوار البروق في أنواع الفروق - (2 / 124).

(2) تجديد المنهج في تقويم التراث –طه عبد الرحمان.

المطلب الثاني: أهمية تأصيل الفكر والمعرفة على هدي من هوية الأمة الحضارية

كان للعلماء المسلمين عبر التاريخ الإسلامي الطويل، هذا الانشغال والاهتمام، وهو ربط العلم بالهوّية، والتحصيل بالأخلاق، والاختراع بالنفع للإنسان، وطلب العلم بالأجر العظيم. عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان عريان، ولباسه التقوى وزينته الحياء، وماله الفقه، وثمرته العلم».(4)

وقد أدى حصول أزمة بين المعرفة والدين إلى حصر العلم في المحسوس فقط،لأن الغرب فرق بين المصطلحين المعرفة والدين، والإسلام في مبناه ومعناه وحضارته لا وجود لهذا الشرخ فيه، فمبدأ التكامل نمط مطرد في مقاصد الدين والخلق، فالتكامل مجسد :بين عالم الغيب والشهادة، والجسد والروح، والنقل والعقل، والقول والفعل، والدنيا والآخرة، والتصور والتطبيق، والفرد والمجتمع، والمرأة والرجل. وانطلاقا من هذه المبادئ تكون الخطط والاستراتيجيات التعليمية في الجامعة وغيرها من المؤسسات الساهرة على نشر المعرفة والوعي، وتراعى أولويات التحصيل العلمي والإعداد التربوي للنشء (ولا يخفى أن يقدم الأهم فالأهم فيه والوسيلة مقدمة على المقصد كما أن المباحث اللفظية مقدمة على المباحث المعنوية لأن الألفاظ وسيلة إلى المعاني. ويقدم الأدب على المنطق ثم هما على أصول الفقه. ثم هو على الخلاف والتحقيق أن تقديم العلم على العلم لثلاثة أمور: إما لكونه أهم منه كتقديم فرض العين على فرض الكفاية وهو على المندوب إليه وهو على المباح. وإما لكونه وسيلة إليه كما سبق فيقدم النحو على المنطق وإما لكون موضوعه جزءا من موضوع العلم الآخر والجزء مقدم على الكل فيقدم الصرف على النحو وربما يقدم علم على علم لا لشيء منها بل لفرض التمرين على إدراك المعقولات، كما أن طائفة من القدماء قدموا تعليم علم الحساب. وكثيرا ما يقدم الأهون

(1) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي - (1 / 145) رقم129.

فالأهون ولذا قدم المصنفون في كتبهم النحو على الصرف ولعلهم راعوا في ذلك أن الحاجة إلى النحو أمس ثم إنه تختلف فروض الكفاية في التأكد وعدمه بحسب خلو الأعصاب والأمصار من العلماء فرب مصر لا يوجد فيه من يقسم الفريضة إلا واحد أو اثنان ويوجد فيه عشرون فقيها فيكون تعلم الحساب فيه آكد من أصول الفقه واعلم أن الواجب علمه هو فرض عين وهو كل ما أوجبه الشرع على الشخص في خاصة نفسه وما أوجبه على المجموع ليعملوا به لو قام به واحد لسقط عن الباقين ويسمى فرض كفاية والعلوم التي هي فروض كفاية على المشهور كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمر الدنيا وقانون الشرع كفهم الكتاب والسنة وحفظهما من التحريفات ومعرفة الاعتقاد بإقامة البرهان عليه وإزالة الشبهة ومعرفة الأوقات والفرائض والأحكام الفرعية وحفظ الأبدان والأخلاق والسياسة وكل ما يتوصل به إلى شيء من هذه كعلم اللغة والتصريف والنحو والمعاني والبيان. وكالمنطق وتسيير الكواكب ومعرفة الأنساب والحساب إلى غير ذلك من العلوم التي هي وسائل إلى هذه المقاصد. وتفاوت درجاتها في التأكيد بحسب الحاجة إليها في هذا الباب.)[1]

مبدأ التأصيل للعلم والمعرفة في الحضارة الإسلامية هو العودة إلى الوحي: القرآن والسنة، ووجود العلماء الذين يقودون الأمة، ويقومون بأدوار كثيره لا تقتصر على نشر المعرفة فقط ولا يمكن أن تتحول المعرفة إلى مراجع ومصادر وأوراق مخطوطة فقط قال الإمام الجويني (فإني تخيلت انحلال الشريعة وانقراض حملتها، ورغبة الناس عن طلبها، وإضراب الخلق عن الاهتمام بها، وعاينت الأئمة يتقرضون ولا يخلفون، والمتسمون بالطلب يرضون بالاستطراف، ويقنعون بالأطراف، وغاية مطلبهم مسائل خلافية يتباهون بها، أو فصول ملفقة وكلم

(1) أبجد العلوم - (1 / 108).

مرتقة في المواعظ، يستعطفون بها قلوب العوام، فعلمت أن الأمر لو تمادى على هذا الوجه لانقرض علماء الشريعة على قرب وكثب ولا تخلفهم إلا التصانيف والكتب، ثم لا يستقل بكتب الشريعة على كثرتها واختلافها، متقل بالمطالعة ...)[1] [2]

المطلب الثالث: منظومة القيم وفلسفة التكامل المعرفي بين الشرق والغرب

إن إشكالية العلاقات بين المناهج في سياقي الفصل والوصل على المستوى المعرفي عموما، والتربوي خصوصاً، ضاربة في أعماق تاريخ العلوم عند المسلمين، وتطرق إليها معظم العلماء سواء أكان ذلك في سياق الحديث عن مناهج التعليمية والتربوية أم مناهج التصنيف والتأليف، أم مناهج النقد والتحليل والشرح وغيرها.

ويحدد بعض المفكرين المعاصرين مفهوما للتكامل المعرفي بكونه: تلك المعرفة والصورة المعرفية المتحققة بتفعيل الرؤية الإسلامية للوجود في كل مجالات المعرفة. سواء أكانت علوما طبيعية أو اجتماعية أو إنسانية أو شرعية. وهذا المبدأ غيبته الحضارة الغربية لأسباب معروفة، وحاولت جاهدة أن تغيبه عن المسلمين عبر إلغاء عشرة قرون من العلوم والحضارة الإسلامية. حيث لا تدرس هذه الفترة في مقررات معظم الجامعات الغربية. إن الغرب عندما يؤرخ لتاريخ العلوم عنده يؤرخ للعصر اليوناني وعصر النهضة، ويقفز على 10 قرون من العلم والحضارة والمعرفة[2]

فهل يصح أن تكون 200 سنة من تاريخ العلوم في أوروبا هي الوصية

(1) غياث الأمم في التياث الظلم – الجويني –ص 30.

(2) تحدث عن هذه القضية الدكتور سليم الحسني وكيف أن المناهج الغربية تلغي في مقرراتها هذه الحقائق.

والمرجعية والمحدد للمناهج والأنساق المعرفية وترتيب العلوم ماضيا وحاضرا ومستقبلا؟

يقتضي التعاطي العلمي مع إشكالية الوصل والفصل بين مختلف المناهج المؤثثة لفضاء المعرفة العلمية محاولة تأصيل هذه العلاقة بالرجوع إلى مختلف السياقات التاريخية والإبستمولوجية التي ساهمت في صياغة هذه قضايا، وهو ما يمكن إنجازه بالاستئناس بمقاربات علمية رصينة بتتبع المناهج العلمية بين سياقي الاتصال والانفصال، منذ أزمان معرفية غابرة، ووصولاً إلى مختلف التناولات الحديثة التي تطلبت ضرورة إيجاد خيط ناظم بين كل المعارف العلمية الإنسانية،وبخاصة على المستوى التعليمي والتربوي، الذي أضحى إعادة هيكلته في سياق تكامل المعرفة الإنسانية وتداخلها أمراً لا مناص منه ، ومقاربة "أندري هبورغينيون" المعبر عنها في سياق دراسته الموسومة بـ "من التعددية المناهجية إلى العبرمناهجية[1]"(De la Pluridisciplinarité à la Transdisciplinarité،

إضافة إلى مقالة "إدغار موران" السالفة الذكر "حول البينمناهجية" بالنسبة لـ"أندريه بورغينيون" فإن إشكالية الفصل بين مختلف المناهج والتخصصات تضرب بجذورها في القدم لتجد لها مستقراً في النسق الفلسفي الأرسطي الذي قسمها إلى ثلاث فئات: العلوم العملية، العلوم الشعرية، العلوم النظرية (الرياضيات، الطبيعيات، الإلهيات). أما في العصر الوسيط، فقد ظهر التمييز بينها في شكل جديد تمثل في الجمع بين الفروع المختلفة للمعرفة الحرة، ممثلة في إطار الرباعي العلمي (Quadrivium، الذي كان يشتمل على الهندسة والحساب والفلك

(1) أنظر تفصيل ذلك في بحث: نحو تكاملية المعرفة: قراءة نظرية وتطبيقية في المقاربة البينمناهجية-رحلة المناهج بين سياقي الوصل والفصل -الباحث محمد فاضل رضوان موقع الملتقى الفكري -

والموسيقى من جهة، والثلاثي الأدبي (Trivium)، الذي كان يضم النحو والبلاغة والديالكتيك أو المنطق من جهة أخرى. هذا التقسيم استمر حتى مستهل القرن السابع عشر، تاريخ ولادة العلم الحديث، حين نادى ديكارت بطريقة لـ"البحث عن الحقيقة في العلوم"، حتى قبل أن يتم إتقان تقنيات الاستقصاء. هذه الطريقة هي التي مهدت في تصور "بورغينيون" الدرب إلى استقلالية المناهج العلمية. ومع ذلك، فإن التصنيف الحقيقي للمناهج لم يتأسس بشكل واضح وصارم إلا مع حلول القرن التاسع عشر الذي حمل معه تحولات علمية واجتماعية واقتصادية هائلة،ألقت بظلالها على العالم أجمع، والقارة الأوروبية بشكل خاص، فكان من نتائجها ظهور أنماط جديدة من التفكير والاشتغال الإنسانيين، بلغت قمتها في الفلسفة الوضعية التي وضع أسسها الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي"أوغست كونت"، الذي كانت له الكلمة الفصل في إعادة مفصلة المناهج على نحو خطي، بدءاً من الرياضيات حتى علم الاجتماع الفتي آنذاك، مروراً بالفلك والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والفسيولوجيا وعلم النفس، في هذا التصنيف الذي اقترحه "كونت" كانت درجة عمومية كل منهج تتناقص بينما تتزايد درجة تعقيده نزولاً من الرياضيات إلى علم الاجتماع. وقد كان ينبغي انتظار مجيء "أنطوان أوغستان كورنو" لإغناء تصورات "أوغست كونت" عبر إضفاء المنظور التاريخي، إذ اعتبر أن أهميته تتعاظم انطلاقاً من الرياضيات ووصولاً إلى العلوم الإنسانية.[1]

أما العصر الحديث ظهرت اجتهادات عالم النفس الفرنسي "ج. بياجيه"، الذي

(1) أنظر تفصيل ذلك في بحث: نحو تكاملية المعرفة: قراءة نظرية وتطبيقية في المقاربة البينمناهجية-رحلة المناهج بين سياقي الوصل والفصل[-الباحث محمد فاضل رضوان موقع الملتقى الفكري - 1429/6/19هـ 2008/06/22 م.

واجه هذا التسلسل الخطي الذي اقترحه كونت وأغناه "كورنو" بتصور دائري يجعل العلوم الإنسانية، وبخاصة علم النفس وعلم الاجتماع، قابلة للتمفصل مع العلوم المنطقية الرياضية، إضافة إلى التمييز بين مجالات عدة في كل منهج: مجال مادي (موضوع المنهج)، مجال تصوري (مجموع معارفه ونظرياته)، مجال إبستمولوجي داخلي (دور الذات، نقد النظريات،...الخ)، ومجال إبستمولوجي مشتق يستخلص المدى الإبستمولوجي العام لنتائج المنهج. هكذا تصبح كلمعرفة متوقفة بالضرورة على الذات من جهة، كما على الموضوع من جهة أخرى.

في الاتجاه نفسه يرى (إدغارموران (في إطار حديثه عن التنظيم المناهجي الذي صاغه حين تعريفه لمفهوم منهاج (Discipline) أن للمناهج تاريخها المتعدد اللحظات ما بين الولادة والمأسسة والتطور، وصولاً إلى التدهور، هذا التاريخ يرتبط في رأيه بتأسيس الجامعات الحديثة في القرن التاسع عشر وتطورها، مع انطلاق البحث العلمي في القرن العشرين. إنه تاريخ مسجل فيإطار تاريخ الجامعة المسجل بدوره ضمن تاريخ المجتمع في شموليته، الشيء الذي يضعنا في اتصال مباشر مع كل من سوسيولوجيا العلوم والمعرفة. وقد اكتسى هذا التاريخ الذي يتحدث عنه (إدغار موران) معالم جديدة مع موجة الانفجار المعرفي الكبير الذي قاد لميلاد تخصصات علمية جديدة باستمرار.

فإذا كان الغرب يرتب العلوم والمناهج التربوية وفق فلسفة وتصور يخصه، فإن المسلمين كان لهم تأصيلهم الخاص، وأولويات العلوم عندهم ليست من أجل قيام الحضارة المادية، بل قيام الإنسان الصالح الذي يقيم الدين والأخلاق وطاعة الله، ثم يقيم الحضارة المادية: قال عبد الله بن المبارك، يقول: «لا يبتلى الرجل بنوع من

العلوم ما لم يزين علمه بالأدب»[1]

وبناء على هذا رتبت العلوم من حيث التحصيل ترتيبا خاصا براعي الأولويات والمرجعيات والأهداف والمقاصد قال ابن عبد البر:(...والعلوم تنقسم قسمين: ضروري ومكتسب،... والعلوم عند جميع أهل الديانات ثلاثة: علم أعلى، وعلم أسفل، وعلم أوسط. فالعلم الأسفل هو: تدريب الجوارح في الأعمال والطاعات، كالفروسية والسياحة والخياطة وما أشبه ذلك. والعلم الأعلى عندهم، علم الدين الذي لا يجوز لأحد الكلام بغير ما أنزل الله في كتبه وعلى ألسنة أنبيائه صلوات الله عليهم أجمعين نصا ومعنى، ... الواجب على من لا يعرف اللسان الذي نزل به القرآن وهي لغة النبي ﷺ أن يأخذ من علم ذلك ما يكتفي به ولا يستغني عنه حتى يعرف تصاريف القول وفحواه وظاهره ومعناه وذلك قريب على من أحب علمه وتعلمه وهو عون له على علم الدين الذي هو أرفع العلوم وأعلاها، به يطاع الله ويعبد ويشكر ويحمد فمن علم من القرآن ما به الحاجة إليه وعرف من السنة ما يعول عليه ووقف من مذاهب الفقهاء على ما نزعوا به وانتزعوه من كتاب ربهم وسنة نبيهم حصل على علم الديانة،.. والعلم الأوسط هو معرفة علوم الدنيا التي يكون معرفة الشيء منها بمعرفة نظيره، ويستدل عليه بجنسه ونوعه كعلم الطب والهندسة، وهذا التقسيم في العلوم كذلك هو عند أهل الفلسفة إلا أن العلم الأعلى عندهم هو علم القياس... ثم العلم الأوسط والأسفل عندهم على ما ذكرنا عن أهل الأديان إلا أن العلم الأوسط ينقسم عندهم على أربعة أقسام هي كانت عندهم رءوس العلوم، وهي علم الحساب والتنجيم والطب وعلم الموسيقى ...

(1) شعب الإيمان للبيهقي - (4 / 200).

ولا صحيح على الحقيقة إلا ما جاء في أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم[1]

وعليه لم يختلف العلماء المسلمين[2] عند ترتيبهم للعلوم من حيث الأهمية والبدء في التحصيل، فكلهم يرى أن التعليم الأولي للنشء هو حفظ القرآن الكريم، وبعده تأتي العلوم الأخرى.

المطلب الرابع: علماء السلف والتكامل المعرفي

حقق علماء الإسلام عبر تاريخهم الطويل نموذجا رائعا للحرص على المعرفة والعلم، انطلاقا من وعيهم بأهمية العلم التي تحتاجها الأمة أفرادا وجماعات، وتجسد ذلك في:

التكامل المعرفي في التحصيل

التكامل المعرفي في التأليف

التكامل المعرفي في التقويم

التكامل المعرفي في المنهج

التكامل المعرفي على مستوى الأفراد والجماعات

والأمثلة كثيرة لنماذج من علماء حققوا هذه العناصر التكاملية في مجموعها: وخاصة: التحصيل والتأليف والمنهج. أما التكامل المعرفي على المستوى الجماعي، فقد حققه مجموع العلماء الذين أيقنوا بأن التخصص ضروري في علم من العلوم، مع التحصيل التكاملي القاعدي المستمد من التركيز على علوم القرآن والسنة، وبعدها يأتي التخصص المرغوب فيه من طالب العلم. وعلى مدار صيرورة الحضارة

(1) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر - (2 / 446)

(2) أنظر ابن خلدون في المقدمة –ابن عبد البر في جامع العلم وفضله – الغزالي في إحياء علوم الدين وغيرهم في بناء الحضارة وعدم انفكاك ذلك عن الهوّية، فقد حرصوا على تحقيق الأهداف، وتحصيل جميع العلوم.

الإسلامية، كان المجتمع مكتفيا وسادا لحاجاته الضرورية في مختلف التخصصات العلمية، لتوفر علماء في جميع الميادين، الشريعة، واللغة، والطب، والفلك، والرياضيات، وغيرها.

ففي ضرورة التكامل المعرفي في التحصيل يقول أبو حامد الغزالي –رحمه الله-:" على المتعلم ألا يدع فنا من فنون العام ونوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظرا يطلع به على غايته ومقصده وطريقه ثم إن ساعده العمر وواتته الأسباب طلب التبحر فيه، فإن العلوم كلّها متعاونة مترابطة بعضها ببعض ويستفيد منه في الحال حتى لا يكون معاديا لذلك العلم بسبب الجهل به...)[1]

وقد أورد السيوطي أن من أراد أن يتبحر في علم التفسير وحده لابد له من خمسة عشر علما (من أراد أن يتعاطى التفسير لزمه عند علماء المسلمين التبحر في خمسة عشر علما هي: اللغة والنحو والصرف والاشتقاق وعلوم البلاغة الثلاثة – المعاني والبيان والبديع – وعلم القراءات وأصول الدين وأصول الفقه وعلم أسباب النزول والقصص وعلم الناسخ والمنسوخ والفقه والحديث وعلم الموهبة)[2]

المطلب الخامس: الموسوعية والتخصص عند علماء الإسلام

تفطن علماء الإسلام إلى إشكالية معرفية هامة تتلخص في عجز الإنسان عن إدراك كل العلوم والمعارف ولإلمام بها؛ تحصيلا واستيعابا، وإن ثبتوا وجوب الإلمام بأصول المعرفة وهما: الوحيين: الكتاب والسنة.

ومع ذلك فقد كانت للكثيرين منهم همم عالية في التحصيل والتأليف، وبرز في التاريخ الإسلامي عدد كبير منهم تميزوا بالتأليف الموسوعي، الدال على تكامل

(1) ميزان العمل-أبو حامد الغزالى- ص 209.

(2) الإتقان في علوم القرآن- السيوطي- ص 180-181.

المعارف وتداخلها، داخل اختصاص واحد، وعدة اختصاصات ومنهم على سبيل المثال:

الفرع الأول: التكامل المعرفي داخل التخصص

علوم الشريعة كثيرة ومتشعبة وقد حقق الكثيرون تكاملا معرفيا تمثل في الإلمام بعلوم التفسير والحديث والأصول والفقه والمقاصد واللغة وعلم الكلام والمنطق والتاريخ والأنساب، وظهر ذلك جليا في مصنفاتهم ومنهم: الإمام ابن حزم وابن تيمية وابن حجر والسبكي والذهبي وابن العربي المالكي وأبو حيان التوحدي والغزالي وابن القيم والسيوطي والنووي والشاطبي وابن خلدون ...

الفرع الثاني: التكامل المعرفي في اختصاصات كثيرة

وهو الجمع بين علوم في تخصصات مختلفة فمنهم من جمع بين علوم الشريعة والطب، والهندسة والفلك وغيرها ومنهم: ابن رشد الحفيد الذي جمع بين علوم ثلاثة الطب والفقه والفلسفة. والكندي أحد المؤلفين الموسوعيين الذي أنتج إنتاجا متنوعا فيه المنطق والحساب والطب والهندسة والنجوم والموسيقى والجغرافيا والجدل وعلم النفس والسياسة والأخلاق، وأبو بكر الرازي الذي جمع بين الشريعة والطب وغيرهم كثير.

وقد برز التأليف الموسوعي بعد حملة التتار والحروب الصليبية بشكل ملفت للانتباه، وهذا يدل على وعي العلماء آنذاك بمشروعهم الحضاري، وهو العودة إلى الريادة والسيادة بواسطة الدين والعلم والأخلاق.

وفي ضوء كل هذا برز من علماء الإسلام من يتبنى قضايا التخصص والفصل بين العلوم لبس تحصيلا بل منهجا وتأليفا وتدرجا في تلفين العلوم، وعلى سبيل المثال ابن رشد –رحمه الله –الذي قال عنه أد/ طه عبد الرحمان: (لقد أظهر ابن رشد

منذ باكورة إنتاجه وهي المختصرات نزعة تخليص تصانيف العلوم مما يظن أنه لا يدخل فيها من أبواب أو لا يرقى إلى مرتبة أقوال أصحابها من الراسخين في العلم، فقام باختصار كتاب المستصفى للغزالى...الذي اشتهر بحسن التبويب وإحكام الترتيب، وبمقدمة جامعة في المنطق تعد في نظرنا حدثا حاسما في تاريخ الممارسة التكاملية للتراث لكن ابن رشد حذفها، كما لو كانت زيادة في غير محلها أو إقحاما مفسدا للبناء العلمي...))[1]

وقد فرّق علماء الإسلام –في رأيي- بين التكامل المعرفي في مرحلة التحصيل والتلقي، وبين التفرغ لعلم واحد؛ يبذل فيه الوسع والجهد، ويتقن استيعابا وتعليما وتصنيفا. قال ابن قتيبة: من أراد أن يكون عالما فليطلب علما واحدا ومن أراد أن يكون أديبا فليتسع في العلوم...)[2]

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام يقول: «ما ناظرني رجل قط وكان مفننا في العلوم إلا غلبته، ولا ناظرني رجل ذو فن واحد إلا غلبني في علمه ذلك»[3]

وقال خالد بن يحيى بن برمك لابنه: «يا بني، خذ من كل علم بحظ؛ فإنك إن لم تفعل جهلت وإن جهلت شيئا من العلم عاديته لما جهلت، وعزيز علي أن تعادي شيئا من العلم وأنشدني عبد الله بن محمد بن يوسف: فلا تلمهم على إنكار ما نكروا فإنما خلقوا أعداء ما جهلوا[4].

(1) تجديد المنهج في تقويم التراث –طه عبد الرحمان –ص 127.
(2) أنظر البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي ص 55.
(3) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر – (2 / 150).
(4) المصدر نفسه.

المبحث الثاني: التكوين الجامعي المعاصر ودلالات التكامل المعرفي

يتناول هذا المبحث الشق الثاني من البحث، الذي يتعلق بالتكوين الجامعي المعاصر عموما، والتكوين الجامعي في الدراسات الشرعية، ودور الجامعة في الحضارة والتقدم ودور الطالب الجامعي في الإسهام في المعرفة، وأهمية المناهج في التحصين العلمي والحضاري للشباب.

المطلب الأول: الجامعة الحديثة وغياب المدلول الحضاري

تعيش الجامعة العربية أزمة وشرخا كبيرا بين الهوية الحضارية والانتماء، وبين مسايرة الركب العلمي والتقدمي الذي عليه الجامعات في الغرب وحتى في دول أسيا والطالب الجامعي حاله من حال جامعته، فهو يواجه في جميع تخصصاته الجامعية نظريات مستوردة، وأفكار تهدد هويته الحضارية، وشخصيته القاعدية الفطرية،[1] فهو بين نظريات فرويد في علم النفس ونظريات ماركس وإنجلز وغيرهما في الاقتصاد، وبين الفلسفات الغربية والمدارس الغربية في الفلسفة وبين الحتمية التاريخية في التاريخ وبين الأفكار والحلول ولا أقول المناهج المستوردة من هنا وهناك.وطالب الدراسات اللغات الأجنبية ممزق بن هويته والحضارة التي يدرسها عبر الأدب الفرنسي أو الانجليزي أو غيره، وطالب الطب والهندسة لا يتلقى لا مناهج ولا علوما لسلفه، فهو يعرف الغرب، ولا يعرف شيئا عن تاريخ الطب في بلده أو حضارته. وطالب علوم الشريعة إما يتلقى قناعات شخصية لا دروس علمية، وإما معلومات تراكمية من غير استخدام لآليات التفكير ومنهج،

(1) ليس المقصود هنا إلغاء المعرفة الإنسانية،وتدريس النظريات المختلفة من الشرق والغرب ومن حضارات أخرى، وإنما أقصد تغييب النظريات الإسلامية والعربية والمنتوج الفكري لعلماء الإسلام عبر التاريخ الطويل، والاقتصار على المستورد فقط.في حين الغرب استفاد كثيرا من نظريات المسلمين وعلومهم وبنى عليها نهضته الحديثة وأعاد تصديرها إلينا على أساس أنها خاصة به والأمثلة كثيرة ليس هنا مجالها.

وإما فقه من غير حديث، أو حديث من غير أصول أو تصوف من غير ضوابط العقائد والمقاصد ...

وفصلّ الفاروقي في كتابه: "أسلمة المعرفة.. المبادئ العامة وخطة العمل"في تشخيص الداء الذي أصاب الأمة الإسلامية وهو الخلل في منظومة التعليم عموما والجامعة خصوصا:"... التعليم في العالم الإسلامي في أسوأ حالاته على الرغم من التوسع الهائل الذي تم حتى الآن، أما فيما يتعلق "بأسلمة التعليم" فلم تكن المدارس والكليات والجامعات – التقليدية منها والعلمانية – بأشد جرأة مما هي عليه اليوم في الدعوة إلى مبادئها اللاإسلامية، كما أن الأغلبية الساحقة من الشباب المسلم لم تكن في يوم من الأيام أكثر افتتانا بهذه المبادئ منها اليوم...ولما كان النظام التعليمي العَلماني قد نشأ في ظل الإدارات الاستعمارية، فقد احتل مساحة هائلة من المساحة، وأُبعد عنها النظام الإسلامي... ظل التعليم الإسلامي في جملته قائماً على الجهد الذاتي الفردي محروماً من الاستفادة من الاعتمادات المالية الحكومية... وحيثما توفرت تلك الاعتمادات فإن متطلبات "العلمنة" كانت تفرض نفسها باسم الحداثة والتقدم...كان هذا يؤدى إلى تقسيم المنهج الدراسي إلى شعبتين متقابلتين بل متعارضتين، تدعى إحداهما "إسلامية" والأخرى"حديثة" (كذا!)، معتبرين الأزهر هو النموذج التقليدي...فأما الشعبة الإسلامية فتبقى على حالها دون تغيير بدعوى المحافظة ومن أجل مصالح مكتسبة،من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن العلمانية تخطط لإبعاد التعليم الإسلامي عن الاحتكاك بالواقع وبالتطورات الحديثة وذلك حتى لا يشكل خريجوه عناصر منافسة لخريجي المعاهد العَلمانية... كلّ هذا خطط له دهاقنة الاستعمار بعد درس وتمحيص...أما الدَّفعة الكبرى للنظام العَلماني فقد جاءت بعد الاستقلال إذ تبنته الدولة طريقاً لها ومنهجاً وصبت فيه الاعتمادات المالية الحكومية، بل وأغرقت من هذا المنهج العَلماني بدعوى القومية

والوطنية...إن سيادة قوى "التغريب" و "العلمانية" وما ينتج عن ذلك من إبعاد المدرسين والطلاب عن الإسلام، كل ذلك لا يزال يعمل عمله في الكليات والجامعات بكل قوة، و لم يقم أحد بأي عمل يكبح جماح هذا الانحراف. والحق أن الوضع الآن أسوأ مما كان عليه أيام الاستعمار."

بقول الباحث المغربي عز الدين العزماني: (تعيش الجامعة المغربية أزمات مركبة، لعل أبرزها ينجلي في بعدين أساسيين، بعد أول يتعلق ببنية التكوين، ثم بعد ثاني يتعلق بتكوين البنية، وأقصد بتكوين البنية، النسق الهيكلي والمؤسساتي للجامعة الذي لا يعكس في العمق التركيبة المجتمعية، كما أقصد ببنية التكوين، النموذج المعرفي والعلمي الذي يكمن في المحتوى التعليمي والذي يعبر عن الإيديولوجيا السلطوية ولا يعبر بشكل جوهري عن مخاضات التحول الثقافي الذي يعرفه مجتمعنا.)[1]

المطلب الثاني: الجامعة الحديثة وتأصيل العلوم الإنسانية والتجريبية

شكل مصطلح "جامعة" عند المسلمين ذلك المفهوم الجامع لعدة علوم ومعارف، وذلك التكوين الشمولي في مجالات معرفية كثيرة، على مستوى الأفراد والجماعات، فقد يتحقق النبوغ الفكري في واحد يجمع بين علوم شتى وقد تخرج الجامعة وفق خططها عدة طلاب في كل التخصصات التي خططت لها في الجامعة (université) من حيث تعريفها في القاموس الأوربي، نجد أنها تحيل على "نظام مؤسسي ينظم النسق المعرفي المجتمعي" ومن ثم تتحدد وظيفتها في إنتاج المعرفة بشكل نسقي، وهو ما تحيل عليه أيضا لفظة الجامعة والجامع في اللغة العربية،

(1) الجامعة المغربية ورهان التكاملية المعرفية- عز الدين العزماني أصل هذه المقالة مداخلة تقدم بها الباحث ضمن أشغال الملتقى العلمي الوطني لمنظمة التجديد الطلابي، حول موضوع "إصلاح التعليم بالمغرب: الجامعة أول"، نظمت أيام 28، 29 أبريل 2008 بجامعة الراشيدية.

ف"جمع الشيء، أي نظمه ونسقه"، مما يدل على أن الدلالة اللغوية للجامعة في المجال التداولي العربي الإسلامي تحيل على معاني النسقية والتكاملية والاستقرار، وهو ما تجد دلالته التاريخية ضمن المضمون العلمي للجامعة الإسلامية (القرويين، الأزهر، الزيتونة...) والتي كانت تعبر بشكل نسقي عن النماذج المعرفية للعلوم الإسلامية كما تتجلى في تفاعلات النظام المجتمعي (أصول الفقه، أصول الحديث، المنطق، علوم اللغة..)، مما جعل تلك المؤسسات التعليمية حاضنة لكيان المجتمع وهويته ووجوده.)[1]

ولا يمكن أن يحدث هذا في عصرنا إلا إذا تأصلت العلوم، وأعيدت إلى مظانها ومصادرها الحقيقية التي غيبها الاستعمار، والجهل والتقليد للغرب الذي فصل العلوم عن الدين. فإذا كان الغرب محقا في طرحه هذا بسبب تضييق الكنيسة على العلماء فليس الشأن كذلك في الإسلام، فلا منافاة في الإسلام بين العلم والدين – كما سبقت الإشارة في مباحث سابقة –وفي هذا الصدد قال الشيخ ابن تيمية:"الأدلة العقلية والسمعية متلازمة كل منهما مستلزم صحة الآخر، فالأدلة العقلية تستلزم صدق الرُّسل ــ عليهم السلام ــ فيما أخبروا به، والأدلة السمعية فيها بيان الأداة العقلية التي بها يعرف الله وتوحيده وصفاته وصدق أنبيائه...والعقل الصريح مطابق للسمع الصحيح"[2]

ويقول الغزالي:"يعتبر العقل: القاضي الذي لا يُعزل ولا يبدَّل، والشرع: الشاهد المُزكَّى المُعدَّل، ويجعل العقل مركب الديانة، وحامل الأمانة[3]

(1) أنظر التفصيل في كتاب الأطر الاجتماعية للمعرفة، جورج كورفيتش: ترجمة د. خليل أحمد خليل، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1981.

(2) أنظر كتاب درء تعارض العقل مع النقل-ابن تيمية –ص56.

(3) إحياء علوم الدين 213/1.

لقد انتقد الفاروقي– رحمه الله –رواد النهضة الحديثة والحكام العرب الذين اعتبروا أن إصلاح نظام التعليم الجامعي الأزهري هو إدخال المناهج والبرامج الغربية، بحجة تطوير التعليم والسير في ركب الحضارة، ولكن الذي وقع التخلي عن القيم، والتأخر عن ركب الحضارة. (... لقد حاول كثيرون من كبار الشخصيات الإسلامية في الماضي أن يصلحوا نظام التعليم الإسلامي وذلك بأن يضيفوا إلى مناهجه الدراسية الموضوعات الأساسية في النظام الأجنبي. ويعتبر السيد أحمد خان والشيخ محمد عبده أبطال هذه المحاولة، أما جمال عبد الناصر فقد وصل إلى ذروة هذه الإستراتيجية عام 1961 حين حول الأزهر– أعظم حصن للتعليم الإسلامي– إلى جامعة "حديثة" لقد استقرت جهود هؤلاء، وجهود الملايين من أمثالهم،على فرضية أن تلك الموضوعات التي تدعى "بالحديثة" لا ضرر فيها وأنها يمكن أن تمد المسلمين بالقوة، وقليلاً ما أدركوا أن هذه الدراسات الأجنبية من "إنسانيات" و"علوم اجتماعية"، وحتى "العلوم الطبيعية"، ما هي إلا واجهات لنظرة متكاملة للحقيقة وللحياة وللعالم وللتاريخ نظرة غريبة بنفس الدرجة عن نظرة الإسلام. وقليلا ما عرفوا عن العلاقة الدقيقة والضرورية التي تربط مناهج البحث في تلك الدراسات كما تربط نظرياتها في الحقيقة والمعرفة بنظام القيم لهذا العالم الأجنبي، ومن هنا كان عقم إصلاحاتهم.. فمن ناحية ظلت الدراسات الإسلامية الآسنة على حالها لم تمس؛ ومن ناحية أخرى لم يؤد العلم الجديد الذي أضيف إلى إنتاج أي مهارة متميزة كتلك التي ينتجها في موطنه الأصلي... الذي حدث هو العكس، إذ جعل المسلمين عالة تتبع البحث الأجنبي والقيادة الأجنبية، لقد نجح – تحت تأثير مزاعمه الطنانة بالموضوعية العلمية – أن يقنعهم بأن فيه الحق الذي يعلو–بل يناهض– مقررات الإسلام التي وسمها أنصار التقدم المتحمسون

بالمحافظة والتأخر...)[1]

المطلب الثالث: تأصيل العلوم بين الأسلمة والتقريب

ناقش الكثير من المفكرين والعلماء أوضاع الأمة الإسلامية، وإشكاليات النهوض ودور العلم في ذلك، وشخصوا أسباب التدهور، ومنها الفصل بين الدين والعلم ووقوع في مطبة تقليد الذي اعتبر أن التخلي عن الدين سبب تقدمه. واعتبروا أن العودة إلى ركب الحضارة هو عن طريق أسلمة العلوم، وتأصيل العلوم الإنسانية والتجريبية وردها إلى المصادر الأساسية للمعرفة عند المسلمين: القرآن والسنة.

والحقيقة أن التكامل المعرفي يدور بين هذين الشقين الأسلمة والتقريب،كتكامل بين هذه المقترحات، فالفاروقي وحاج حمد–رحمهما الله–ومن وافقهم يتحدثون عن أسلمة المعرفة في مشروعهم، وطه عبد الرحمان وطلابه ومن وافقهم يتحدثون عن التقريب بين العلوم، وكلّها تصب في جمع بين الأصالة والمعاصرة. يقول الفاروقي في كتابه: "أسلمة المعرفة .. المبادئ العامة وخطة العمل" في موضوع أسلمة المعارف الحديثة: "إنها لخطوة عظيمة إلى الأمام إذا ما فرضت الجامعات والكليات في العالم الإسلامي مقررات دراسية إجبارية في الحضارة الإسلامية كجزء من برنامج الدراسات الأساسية لجميع الطلاب. إن ذلك سيمد الطلاب بالإيمان بدينهم وتراثهم وسيزرع في النفوس الثقة بأنفسهم لينهضوا ويواجهوا مشكلاتهم الحالية، ويتغلبوا عليها ثم ينطلقوا نحو الغاية التي كلفهم بها الله تعالى. لكن هذا لا يكفي.إن الانطلاق نحو الغاية الإسلامية والعمل على جعل كلمة الله هي العليا في الزمان والمكان لا غنى لهما عن معرفة العالم المحيط بنا. هذه المعرفة هي هدف العلوم المختلفة. وقد وجدنا المسلمين قبل أن يسقطوا في الضعف والنوم يطورون العلوم

(1) أسلمة المعرفة .. المبادئ العامة وخطة العمل "ترجمة عبد الوارث سعيد– ص3.

ويحددون بوضوح علاقة الإسلام بكل واحد منها من حيث القيم والأنظار المتعلقة بالحياة، وقد نجحوا كذلك في جعلها جزءاً لا يتجزأ من بناء المعرفة الإسلامية. لهذا حققوا إنجازات رائعة في كل الميادين، كما استخدموا هذه المعرفة بكفاءة ليرتفعوا بمثلهم الإسلامية. وحين ركدت ريح المسلمين قام غير المسلمين فأخذوا تراث العلماء والمثقفين المسلمين وكيفوه مع نظرتهم للحياة وأقاموا على ذلك مختلف العلوم، وأضافوا إليه مساهمات ذات قيمة ثم استغلوا كل تلك المعارف الجديدة فيما يحقق مصالحهم. واليوم، هانحن نجد أن غير المسلمين أساتذة لكل العلوم بلا منازع. واليوم نجد مؤلفات غير المسلمين وإنجازاتهم ونظرتهم للعالم ومشاكلهم ومثلهم العليا هي التي تدرس للشباب المسلم في جامعات العالم الإسلامي. إن شباب المسلمين اليوم وفي جامعات المسلمين يتم صبغهم بالصبغة الغربية وعلى أيدي الأساتذة المسلمين..."

وقد اقترح الفيلسوف طه عبد الرحمن استبدال أسلمة المعرفة بـ "التقريب" إقتداء بالإمام ابن حزم الظاهري في كتابه "التقريب لعلوم المنطق". وقد وضع آخرون مصطلح"تكامل المعرفة" لتدارك التحيز الذي يوحي به مصطلح "أسلمة"، لكن، بغي طرح مصطلح يجمعها كلها في غاياتها ويتفادى سلبياتها، وهو"وحدة المعرفة"، فغاية الرسالة السماوية التوحيد، والحقيقة واحدة، والطريق واحد، والقول بالتكامل لا يكون إلا عن خلاف واقع لا اختلاف؛ لأن الخلاف يحصل عن تنوع، والاختلاف عن تضاد، فينتج عن الخلاف حال الحوار تكامل، والتكامل يرام منه التوحيد في الكلمة والتعاون في العمل والتنوع في الأفكار فلا يقع الصدام، فالبعض يكمل البعض الآخر. ومصطلح "أسلمة المعرفة" كان المراد منه جعل العلوم في خدمة التوحيد والإيمان، وجعل العلوم كلها لنصرة حقائق الإسلام الكامن في الكتاب والسنة، وتجلية الإعجاز العلمي، وتقعيد العلوم الإنسانية على ضوابط

العقيدة الإسلامية، والتحاكم لأولي العلم من المسلمين فيما اختلفوا فيه، بعد أن صارت العلوم توجه للطعن في الإسلام والعقائد الموحدة، بل صارت في خدمة الإلحاد ومركزية الإنسان.(1)

المطلب الرابع: الدراسات الشرعية بين التخصص والتكامل المعرفي الجماعي

ما دام البحث يناقش قضية التكوين والتحصين والإعداد المتكامل للطالب الجامعي، ارتأيت أن أخصص هذا المطلب والذي يليه لمناقشة قضية التكوين والبحث والتكامل المعرفي في الدراسات الشرعية، والتي هي من صميم تخصصي، فالدراسات الشرعية الجامعية سواء في مراحل التدرج أو ما بعد التدرج وقعت في أسر المناهج الجامعية الحديثة، في التخصصات التي تخل بالتحصيل التكاملي، فقسم الشريعة مقصر في التكوين العقدي والفكري للطلاب وقسم العقائد والأديان مقصر في التكوين الفقهي والأصولي للطلاب، وقسم الحضارة تنقصه الكثير من المواد العقدية والفقهية. والعلم واسع وإدراكه كله مستحيل، ولكن الإشكال ليس في سعة العلوم وكثرتها، وإنما الإشكال في المناهج والمقاربات التي تعتمد لتدريس هذه العلوم، والأهداف المحددة لهذا التكوين، فهل الطالب في الدراسات الشرعية يعد ليكون إماما وخطيبا، أم ليكون أستاذا ومعلما أم ليكون عالما وداعية، أم ليكون صحفيا وكاتبا، أم ليكون كل هؤلاء, أولا واحد من هؤلاء. وقد حل علماء الشريعة هذه القضايا قديما حينما قرروا مبدأ التحصيل التكاملي، ثم مبدأ التخصص المبني على النيل من العلوم جميعها من غير تبحر ولا تعمق، لأن التخصص لا يمكنه أن يتقن من غير العلوم المرافقة له. فلا يمكن لمن يدعي أنه تخصص في أصول الفقه أن لا تكون له معرفة بالكتاب والسنة والفقه والمقاصد

(1) أنظر: أسلمة المعرفة: إعادة صياغة المصطلح-بليل عبد الكريم-: 2009/9/12 ميلادي 1430/9/22 هجري موقع الألوكة www.aluka.com

والقواعد والنظريات الفقهية. ولا يمكن لمن ادعى التخصص في العقائد والأديان ألا تكون له معرفة بالفكر والأديان والنظريات الفكرية والفلسفية والتصوف والأخلاق وغيرها. وجمع بين الشرائع والعقائد أولى.

قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: (مَنْ تفقَّهَ و لم يتصوف فقد تفسق، ومَنْ تصوَّف و لم يتفقه فقد تزندق، ومن جمعَ بينهما فقد تحقَّق)[1] وإذا كان لهذا التخصص حسناته المرتبطة أساساً بضبط الحدود الفاصلة بين مختلف المناهج المعرفية لضمان الحفاظ على هويتها ومنع تحولها إلى معرفة مائعة، فإن للتخصص المبالغ فيه سلبياته الكثيرة أيضاً التي تتجسد في التشييء المبالغ فيه للمواضيع المدروسة، عبر اقتطاعها من سياقها العام، الشيء الذي يلغي كل أشكال العلاقات الممكنة بين التخصص المدروس والتخصصات الأخرى التي نسيج بلغتها ومفاهيمها الخاصة.

وإذا لم يتحقق التكامل المعرفي بالأخذ من كل علم بنصيب وفق منهج مدروس معلوم، أقله دراسة كتاب في كل فن كما درج عليه الأولون، فليكن تحقيق التكامل على مستوى الجماعي بإستراتيجية محكمة تحقق تلبية لحاجات الأمة في كل اختصاص من يتقنه تحصيلا ومنهجا وتبليغا ودراسة وبحثا، فيتحقق التميز والنبوغ والنجاح.

المطلب الخامس: الدراسات الشرعية والتكاملية المعرفية

عندما أفتى الكثير من العلماء بغلق باب الاجتهاد عللوا ذلك بعدم وجود العالم الكفء، الذي تجتمع فيه علوم كثيرة ومعرفة بالواقع، والسبب يعود إلى أن العلماء لما أخلدوا إلى التقليد ومرت الحضارة بالجمود ذهبوا إلى الفصل بين العلوم، وأن

(1) حاشية العلامة علي العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزية في الفقه المالكي ج3. ص195.

التخصص والتعمق في علم واحد هو الأساس فوقع ما وقع من تعصب وخلاف وخصومات، والبعد عن النصوص وتحكيم الأعراف، فأصبحت خصومات بين أهل الفقه وأهل الحديث وأهل التصوف وأهل الحديث وكل برد على صاحبه وأهل الكلام وأهل الأثر. قال محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة: (لا يستقيم العلم بالحديث إلا بالرأي، ولا يستقيم العمل بالرأي إلا بالحديث)[1]

قال الإمام الخطابي في (معالم السنن): (رأيت أهل العلم في زماننا قد حصلوا حزبين، وانقسموا إلى فرقتين: أصحاب حديث وأثر، وأهل فقه ونظر؛ كل واحدة منهما لا تتميّز عن أختها في الحاجة، ولا تستغني عنها في درك ما تنحوه في البغية والإرادة؛ لأن الحديث بمنزلة الأساس الذي هو الأصل، والفقه بمنزلة البناء الذي هو له كالفرع، وكل بناء لم يوضع على قاعدة وأساس فهو منهار، وكل أساس خلا عن بناء وعمارة فهو قفر وخراب).[2]

وقد كان لابن خلدون والشاطبي وغيرهما دور كبير في التفطن لهذه القضايا، واعتبر الشاطبي أن العلوم متكاملة والاجتهاد لا يصح من دونها وجعل علم المقاصد هو الذي يجمع ولا يفرق. (... يستعمل فعل قصد ويفيد المضادة لفعل لغا من اللغو بمعنى الخلو من الفائدة وصف الدلالة ... وضد سها من السهو وهو التوجه والوقوع في النسيان والقصد هو حصول التوجه والخروج عن النسيان، وهو ضد لها من اللهو وهو الخلو من الغرض الصحيح، والقصد هو حصول الغرض الصحيح وقيام الباعث المشروع ... والمقصد بهذه المعنى هو مضمون قيمي، فيكون القصد بمعنى حصّل فائدة أو حصل نية أو حصل غرضا فيشمل علم المقاصد إذ ذاك على

(1) أصول السرخسي، تحقيق: أبي الوفاء الأفغاني، عنيت بنشره: لجنة إحياء المعارف النعمانية بحيدر آباد، الدكن بالهند، دار المعرفة، بيروت، (د. ت) 113/2.

(2) الخطابي، معالم السنن، المكتبة العلمية، بيروت، ط 1، 1401هـ/ 1981م، 1/3.

ثلاث نظريات أصولية متمايزة فيما بينها: نظريات المقصودات وهي تبحث في المضامين الدلالية للخطاب الشرعي، والثانية نظرية القصود وهي تبحث في المضامين الشعورية أو الإرادية والثالثة نظرية المقاصد وهي تبحث في الخطاب القيمي للخطاب الشرعي ...)[1]

أما على مستوى الدراسات العليا فيمكن أن تحقق التكاملية المعرفية في دراسات معمقة متخصصة تتناول الدراسات المقارنة والتكاملية المعرفية ويمكن أن تؤدي إلى التقارب والتكامل على مستوى البحوث وصورها:

1-مقارنة مسائل الشريعة بالقانون.

2- مقارنة مسائل الشريعة بالفلسفة.

3-مقارنة مسائل الشريعة بالإعجاز العلمي والاكتشافات الحديثة.

4-مقارنة مسائل الشريعة بالعلوم الاجتماعية وعلم النفس.

5-ضرورة الدراسات التأصيلية والتكاملية المعرفية.

وهي دراسات مهمة في قضايا أسلمة المعرفة والعلوم، والتقريب بين العلوم العصرية والتجريبية والفلكية والطبية والعلوم الشرعية، وتأصيل هذه الظواهر من الكتاب والسنة، واعتماد الوحيين مصادر للمعرفة الطبية والعلمية والفلكية وغيرها، وليس فقط مصادر للمعرفة الشرعية.

3-ضرورة الدراسات المصطلحية والتكاملية المعرفية.

والدراسات المصطلحية مهمة في تحديد الأنساق المعرفية الإسلامية، وتبين المقاصد الحضارية والفكرية وتضبط المفاهيم، وهذا يؤدي إلى بناء علمي متين في الفكر والمنهج والتحصيل.

(1) تجديد المنهج في تقويم التراث –طه عبد الرحمان - ص 95-96

الخاتمة

إن إشكالية التكامل المعرفي إشكالية علمية تحتاج إلى جهود وإثراء ـــو الـــذي اتضح من خلال هذا البحث المتواضع، إن علماء الإسلام ناقشوا هـــذه القضـــايا المعرفية انطلاقا من ضرورة العلم وضرورة طلبه وتحصيله أولا، ثم نشره والعمل بـــه لتحقيق حضارة تقوم على الإنسان صاحب الرسالة والأخلاق. ومـــادام البحـــث يناقش قضية التكوين لدي الطالب الجامعي الذي يعيش تمزقا بين تحصيله العلمـــي وهويته، فإن الضوابط واضحة في تحقيق مبدأ التكامل في التحصيل قدر المســـتطاع من غير إخلال بالتخصص، ومن غير عداوة لما يجهل من العلوم ولحملتها. وتحقيـــق التكامل المعرفي يمكن أن يتحقق في مجال العلم والدين والأخلاق أولا، ثم التكامـــل في التحصيل، والمنهج، والتكوين، والتصنيف.

توصيات

1-إحداث مقياس علمي في كل التخصصات حول تاريخ العلوم عند المسلمين ولو كان سداسيا.

2-التركيز على المناهج والأنساق والتدرب على التفكير والاستنتاج أكثر مـــن القاناعات والدعوة إلى نشر أفكار المعلم وليس نشر أفكار العلم.

3-إعادة النظر في الكثير من المسلمات التعليمية والتعلمية على مستوى الإفـــراد والمؤسسات الأسرة، المدرسة، الجامعة، الجامع.

4-ممارسة ما يسمى بالفرنسية بقاعدة الميمات الثلاث(La règle des 3 M) (ممارسة التهجين المنهجي المافوق مناهجي

(Pratiquer le Métissage Méthodologique Métadisciplinaire)

5-إعـــادة النظـــر في مناهجنـــا الدراســـية تأصـــيلاً ومواكبـــة

6-حصر أهم مشكلات الشباب الفكرية ودراستها ومعالجتها.

المصادر والمراجع

أبجد العلوم والوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم-الفتوحي – تحقيق عبد الجبار زكار –دار الكتب العلمية -1978.

إحياء علوم الدين –أبو حامد الغزالي –مكتبة ومطبعة البابي الحلبي -1358هـ

أصول السرخسي، تحقيق: أبي الوفاء الأفغاني، عنيت بنشره: لجنة إحياءالمعارف النعمانية بحيدر آباد، الدكن بالهند، دار المعرفة، بيروت، (د. ت)

الأطر الاجتماعية للمعرفة، جورج كورفيتش: ترجمة د .خليل أحمد خليل، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1981.

الإتقان في علوم القرآن- السيوطي- دار الكتب العلمية -2000م

أنوار البروق في أنواع الفروق ومعه إدرار الشروق على أنواء الفروق لابن الشاط وتهذيب الفروق للمكي-دار الكتب العلمية تاريخ النشر1998

البصائر والذخائر -لأبي حيان التوحيدي - أطلس للنشر والتوزيع تاريخ النشر 01/01/1964: تحديد المنهج في تقويم التراث –طه عبد الرحمان– المركز الثقافي العربي ط 2-2005.

جامع بيان العلم وفضله -لابن عبد البر -دراسة وتحقيق: أبو عبد الرحمن فواز أحمد زمرلي-مؤسسة الريان - دار ابن حزم-الطبعة الأولى 1424-2003 هـ

حاشية العلامة علي العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزية في الفقه المالكي.

درء تعارض العقل والنقل-ابن تيمية – جامعة الإمام محمد بن سعود –1979.

شعب الإيمان للبيهقي –دار الكتب العلمية –بيروت.

غياث الأمم في الْتياث الظلم – الجويني –تحقيق مصطفى حلمي –فواد عبد المنعم –دار الدعوة- 1400هـ

الفقيه والمتفقه- للخطيب البغدادي –تحقيق عادل يوسف العزازي –دار ابن الجوزي –ط1- 1417هـ1996م

المعرفة عند مفكري المسلمين، محمد غلاب- الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة، 1996.

معالم السنن، الخطابي المكتبة العلمية، بيروت، ط 1، 1401هـ/ 1981.

ميزان العمل-أبو حامد الغزالى- تحقيق وتقديم سليمان دنيا –دار المعارف – مصر ط1-1964م.

موقع الألوكة www.alukah.net

موقع الملتقى الفكري/www.fiqh**forum**.com

الجامعة المغربية ورهان التكاملية المعرفية- عز الدين العزماني أصل هذه المقالة مداخلة تقدم بها الباحث ضمن أشغال الملتقى العلمي الوطني لمنظمة التجديد الطلابي، حول موضوع "إصلاح التعليم بالمغرب: الجامعة أول"، نظمت أيام 28، 29 أبريل 2008 بجامعة الراشيدية.